دور الوقف الإسلامي في عمارة المساجد وأثره على الحضارة الإسلامية

د. جابر عيد الوندة

مُدير عام الجمعية الكويتية للتواصل الحضاري

مقدمة

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول لهدى ومن اقتفى أثره من بعدُ واهتدى بهديه، وبعدُ:

فإن الوقف من بدائع شريعة الإسلام، التي تميز بها عن الأديان والشرائع الأخرى؛ فقد كان الوقف –وما زال– من أهم الروافد المالية والاقتصادية للكثير من الخدمات الإنسانية والاجتماعية، والعمرانية في بلاد المسلمين. نعم، فلقد عُرف الوقف في قبل الإسلام، إلا أن أغراضه لم تتجاوز الوقف على المعابد ودور العبادة؛ ولكنه في الإسلام شمل آفاقًا دينية واجتماعية وإنسانية، وكانت له آثار محمودة في البناء الحضاري للمجتمع الإسلامي.

ومن هذا المنطلق، يهدف هذا البحث إلى إظهار دور الوقف الإسلامي في عمارة المساجد، وأثره على الحضارة الإسلامية.

وأملي أن يكون هذا البحث خُطوةً موفقتًاً ومدخلاً ميسرًا إلى دراسات وأبحاث منهجية حول النظم والشرائع الإسلامية وعلاقاتها بالبناء الحضاري الإسلامي. والله الموفق والهادي إلى سواء السبيل.

ملخص البحث:

للأوقاف آثارًا إيجابية في النهوض الحضاري بالأمة الإسلامية، لاسيما في النهضة العمرانية. فقد أسهمت الأوقاف في حركة بناء المساجد، وهي التي تتمحور حولها الحضارة العمرانية الإسلامية. كما أن لها آثارا أخرى إيجابية على جوانب اجتماعية واقتصادية لهذه الحضارة المتميزة.

وسنجد في هذا البحث مقدمات تعريفية بمفهوم الوقف في الإسلام، واستعراض موجز لدوره في عمارة المساجد، وأثر ذلك على الحضارة الإسلامية ونهضتها العمرانية.

Awqaf has had positive effects on the emergence of the Islamic civilization, especially in the urban renaissance. Awqaf contributed to the movement of building mosques, which is one of the pillars of Islamic urban civilization. Waqf also has other positive effects on the social and economic aspects of this distinguished civilization.

DOI: 10.12816/0036920

الفصل الأول: مفهوم الوقف، حكمه، أهدافه ومجالاته

المبحث الأول: مفهوم الوقف في اللغة والاصطلاح:

الوقف لغة: المنع والحبس؛ وقف الشيء وأوقفه وقفًا أي حبسه؛ قال ابن فارس: «الواو والقاف والفاء أصل واحد يدل على تمكث في الشيء يقاس عليه»[1]، ومن هذا الأصل المقيس عليه يؤخذ الوقف، فإنه ماكث الأصل. والوقف والتحبيس والتسبيل بمعنى واحد، وهو: الحبس والمنع[2].

والفصيح أن يُقال: وقفت كذا – من دون الألف – ولا يقال: أوقفت – بالألف – إلا في لغة تميمية وهي رديئة، وعليها العامة، وهي بمعنى سكت وأمسك وأقلع[3]. والحُبْس: بضم الحاء وسكون الباء بمعنى الوقف، وهو كل شيء وقفه صاحبه من أصول أو غيرها، يحبس أصله وتُسبل غلته[4].

ويُشتهر استعمال المصدر باسم المفعول، فيقال: هذه الدار وقف، أي موقوفة، ولهذا فإنه يثنى ويجمع عندئذ، فيقال: وقفان وأوقاف، ويأتي بمعنى السكون، يُقال وقفت الدابة إذا سكنت.[5]

الوقف في الاصطلاح الفقهي.

لقد تنوعت وتباينت عبارات الفقهاء في بيان مفهوم الوقف، وذلك بسبب الاختلاف في بعض شروط الوقف عندهم؛ فقد عرّفه الحنفية بأنه: «حبس العين على حكم ملك الواقف، والتصدق بالمنفعة ولو في الجملة. ومعناه بقاء العين على ملك الواقف، مع منعه من التصرف فيها[6].

وذهب الصاحبان من الحنفية، إلى أن الوقف: (حبس الواقف العين الموقوفة على حكم ملك الله تعالى، وصرف منفعتها على من أحب). [7]

وذهب المالكية إلى أن الوقف من حيث هو مصدر: (إعطاء منفعة شيء مدة وجوده لازمًا بقاؤه في ملك معطيه ولو تقديراً)، ومن حيث هو اسم (ما أُعطيَت منفعته مدة وجوده)[8].

وعرَّفه الشافعية بأنه: (حبس مال يُمكن الانتفاع به مع بقاء عينه بقطع التصرف في رقبته على مصرف مباح موجود) [9] .

وعرَّفه الحنابلة بأنه: (تحبيس مالك مطلق التصرف مالَه المنتفع به مع بقاء عينه بقطع تصرفه وغيره في رقبته، يصرف ريعه إلى جهة برّ تقربًا إلى الله تعالى) [10].

فالوقف في المصطلح الفقهي الإسلامي ضرب من ضروب التبرع والإحسان لتحقيق أهداف نبيلة في خدمة الدين والمجتمع أو فئات محدودة منه.

المبحث الثاني حكم الوقف وأهدافه:

حكم الوقف

فالوقف بمفهومه السابق ضرب من الصدقات وأعمال البر التي يندب إليها؛ فمطلق الحكم فيه الندب، حيث يُرجى لفاعله الثواب الجزيل ولا يُذم مطلقًا من تركه. فهو داخل في عموم قول الله جل ذكره: ((...وافعلوا الخير لعلكم تفلحون))

والأدلة مُتضافرة على مشروعيته؛ فقد عمل به الصحابة والتابعون وأتباعهم، ثم تبعهم المسلمون جيلًا بعد جيل، طيلة أزمنة عديدة ودهور مديدة، حتى كان رمزاً دالاً على وحدتهم وقوة شكيمتهم وظهور أمرهم، وربط تاريخهم بحاضرهم، وتوافق أقوالهم[11].

ومن الأصول التي يستدل بها في هذا الباب وصية النبي –صلى الله عليه وسلم– لعمر بن الخطاب في الأرض التي أصابها بخيبر؛ فعن عبد الله بن عمر –رضي الله عنهما– قال: {قد أصاب عمر أرضًا بخيبر. فأتى النبي –صلى الله عليه وسلم– يستأمره فيها. فقال: يا رسول الله، إني أصبت أرضا بخيبر، لم أصب مالًا قط هو أنفس عندي منه، فما تأمرني به ؟ فقال: إن شئت حبست أصلها، وتصدقت بها. قال: فتصدق بها . غير أنه لا يُباع أصلها، ولا يوهب، ولا يورث . قال : فتصدق عمر في الفقراء، وفي القربى، وفي الرقاب، وفي سبيل الله، وابن السبيل، والضيف . لا جناح على من وليها : أن يأكل منها بالمعروف، أو يطعم صديقًا، غير متمول فيه. وفي لفظ غير متأثل}.

أهداف الوقف

للوقف دور مُهم في المجتمع حيث إنه أحد الأدوات المهمة لتحقيق الاستقرار الاجتماعي والاقتصادي، وذلك لتنوع المصالح القائم على تحقيقها سواء بالنسبة للفرد أو للمجتمع.

إن ما يطلق عليه في عصرنا الحالي تحت عنوان "الاستقرار الاقتصادي" هو بحد ذاته ما يسعى الوقف إلى تحقيقه، بجانب الدور الاجتماعي الذي يحققه، ذلك من خلال إرساء قواعد التكامل والتكافل الاجتماعي، وتبادل المنافع بين أفراد المجتمع، وفتح مجالات جديدة يستطيعون من خلالها تحقيق العيش الكريم.

الأهداف العامة:

1. تنمية المجتمعات المسلمة باعتبار أن الوقف سلسلة من الأنشطة المالية التي تسعى إلى تطوير كافة نواحي المجتمع وتوفير الرعاية الاجتماعية والصحية والاقتصادية لأفراده.
2. يقوم الوقف –ابتداء– بالوفاء باحتياجات الطبقات الفقيرة، وبناء وصيانة، وتشغيل دور العبادة ثم ينتقل إلى قطاعات اجتماعية أكبر وأشمل مثل دور العلم والمصحات الطبية ودور العبادة ...
3. تحقيق مبدأ التكافل بين الأمة المسلمة، وإيجاد التوازن في المجتمع، فالله – سبحانه وتعالى– جعل الناس مختلفين في الصفات والقدرات، والوقف عامل من عوامل تنظيم الحياة بمنهج حميد يرفع من مكانة الفقير ويقوي الضعيف، ويعين العاجز، ويحفظ حياة المعدم، من غير مضرة بالغني ولا ظلم يلحق بالقوي، وإنما يحفظ لكل حقه بغاية الحكمة والعدل، فتحصل بذلك المودة وتسود الإخوة ويعم الاستقرار، وتتيسر سُبل التعاون والتعايش بنفوس راضية مُطمئنة.
4. في الوقف ضمان لبقاء المال ودوام الانتفاع به والاستفادة منه مُدة طويلة، فإن الموقوف محبوس أبدًا على ما قُصد له ولا يجوز لأحد أن يتصرف فيه تصرفًا يفقده صفة الديمومة والبقاء .
5. الوقف يُوفر مصدر دخل ثابت للفقراء، فلا أحسن ولا أنفع للعامة من أن يكون شيئًا قد حبسه للفقراء وابن السبيل ويصرف عليهم منافعه ويبقى أصله.
6. إنشاء المؤسسات الوقفية التي تعمل بحرية كاملة بعيدًا عن المؤثرات الخارجية، وتؤدي غرضًا أو أغراضًا متعددة تخدم المجتمع، وتُحقق أغراض الكثيرين من الأفراد الذين يرغبون في فعل الخير، ولكن أعمالهم والتزاماتهم تمنعهم من ذلك أو ليس لديهم الخبرة الكافية للقيام بتلك الأعمال.

الأهدف الخاصة:

1 – امتثال أمر الله – سبحانه وتعالى– بالإنفاق والتصدق والبذل في وجوه البر . كما أن فيه امتثالا لأمر الرسول – صلى الله عليه وسلم – بالصدقة وحثه عليها.

2 – الوقف يتعلق بالجوانب الخاصة بالطبيعة البشرية، فالإنسان يدفعه إلى فعل الخير دوافع عديدة لا تنفك في مجملها عن مقاصد الشريعة الإسلامية وغاياتها، منها دوافع دينية واجتماعية وعائلية وواقعية وأخرى غريزية.

3 – في الوقف استمرار للنفع العائد من المال المحبوس، فثوابه مُستمر لوقفه حيًا أو ميتًا وداخل في الصدقة الجارية التي أخبر الرسول – صلى الله عليه وسلم – أنها من العمل الذي لا ينقطع، وهو أيضًا مُستمر النفع للموقوف عليه ومتجدد الانتفاع منه أزمنة متطاولة[12] .

مجالات الوقف

أولا: المجال الثقافي والعلمي

للأوقاف دور كبير عبر التاريخ في البناء الحضاري والتنموي، وتلبية احتياجات المجتمع المتنوعة، ودعم البرامج النافعة لعموم الناس، والتاريخ الإسلامي حافل بالأوقاف التي حققت مصالح المسلمين منذ عهد النبوة إلى عصرنا الحاضر، ويشهد لذلك الأدلة والنصوص في السنة النبوية، والتاريخ الإسلامي، والسجلات والوثائق الخاصة بالأوقاف التي شيدت لدعم البر والخير والتنمية كبناء المساجد، والمدارس، والمكتبات، ورعاية الأيتام والفقراء، وحفر الآبار، والخدمات الصحية.. وغيرها .

وقد قامت الأوقاف بتمويل العديد من الحاجات والخدمات الأساسية والعامة للمجتمع مما يخفف العبء عن ميزانيات الدول، ويُعتبر البحث العلمي أساسًا للتقدم في شتى المجالات العلمية والتنموية، والحاجة ماسة في عصرنا الحاضر مع تقدم البحث العلمي، وتطور تقنياته، وزيادة تكاليف المعيشة، وحاجة المجتمع إلى التقدم ومواكبة مُتغيرات العصر، وتلبية حاجاته المعاصرة إلى الإفادة من الوقف، وتطوير آلياته، وابتكار صيغ تتناسب مع الاقتصاد المعاصر، وتُراعي الأحوال والظروف الاجتماعية، وا لتوعية والتثقيف لتحفيز الناس على المشاركة في الأوقاف لضمان استمرارها، وقيامها بدورها المنشود، وسواء أكان هذا التطوير في صورة الموقوف أم صيغة الوقف، أم في طريقة إدارته واستثماراته، أم في مجالات صرف ريعه[13].

وهناك صُور مُتعددة للوقف المباشر على البحث العلمي، لعل من أبرزها: وقف الكتب ولها طرق عديدة، ووقف البرامج الحاسوبية، ووقف المكتبات، ووقف الأجهزة، ونظرا لتطور البحث العلمي، وتطور الإدارات الإشرافية، ومراكز البحوث، وسعة مجالات البحث العلمي لمواكبة متغيرات العصر وفق الأسس العلمية، تبرز في العصر الحاضر أهمية توفير الموارد المالية بصيغة الوقف الاستثماري الذي يُصرف ريعه لدعم البحث العلمي.

ثانيًا: المجال الاقتصادي:

الأوقاف الإسلامية لها دور كبير في حل المشكلات الاقتصادية في المجتمع المسلم، ونظام الوقف أهم عامل مساعد لنظام الزكاة لحل تلك المشكلات، لأنه أُستخدم لحل الكثير من المشكلات التي تظهر في المجتمع المسلم، ومن ذلك: ما أوقف للمرضى، والعجزة، والمساكين، والضعفاء، والفقراء، واليتامى، والارامل، بل حتى في رعاية الحيوانات. ولولا أن أوقاف المسلمين قد أُهملت لكفت طبقات كثيرة من الناس، فلابد من إعادة الأوقاف بشقيها: الأوقاف الذرية والأوقاف العامة.

وللوقف أثره في التنمية الاقتصادية من خلال التوسع في الموقوف من العقارات والمنقولات، والسعي لإيجاد أُصول ثابتة لصالح المجتمع، وتقليل صرف الميزانية العامة وإيجاد فرص عمل، والتخفيف من حِدة البطالة، وحماية الأموال من الإسراف والتقتير.

ثالثًا: المجال الاجتماعي:

تعد التنمية الاجتماعية واحدة من أبرز القضايا التي تُعالجها الدول في عصرنا الحالي، نظرًا لأهمية الأمور التي تعالجها، ومن أمثلتها: القضاء على الفقر، وتوفير فُرص العمل، وإقامة التعاونيات، ومُعالجة قضايا الشيخوخة، والشباب، والأسرة، والدمج الاجتماعي، والإعاقة، وغير ذلك من القضايا..

وهنا يُبرز دور الوقف في تحقيق التنمية الاجتماعية من خلال إرساء قواعد العدالة الاجتماعية والتكافل الاجتماعي بين أفراد المجتمع، ومُعالجة المشاكل الاجتماعية من بطالة وأمية وفقر... وكذلك توفير دور الرعاية الاجتماعية، وتحقيق الأمن والاستقرار الاجتماعي، والاستقرار الاقتصادي والاجتماعي.

وهناك مجالات أُخرى زخرت بها الحضارة الإسلامية سوف يتم التطرق لها في أبحاث قادمة بإذن الله..

الفصل الثاني: دور الوقف في بناء الحضارة الإسلامية

جاء الإسلام فاتحا للعقول والقلوب، فلم يغلق مجالًا للتفكير والإبداع بل حث على التفكر الذي يعد أساسا قويمًا في الطريق إلى الحق والعدل والإبداع والجمال، وغير ذلك من المكونات المادية والمعنوية للحضارات، ويضمن لها البقاء والاستمرار والتطور.

وتميزت الحضارة الإسلامية عن غيرها من الحضارات الأخرى بأنها تركت إرثًا علميًا، ومعماريًا، وفنيًا، لم تتركه أمة من الأمم سواء السابقة أو اللاحقة، تمثل في المدن المتحفية التي انتشرت في مشارق ومغارب العالم الإسلامي بعمارتها وزخارفها، كالقاهرة بمساجدها ومبانيها وشوارعها، وأشبيلة، وقرطبة وطليطلة، وأصفان، واستطنبول، وبخاري، وسمرقند، وبغداد ودمشق، وتونس، وسراييفو..

لقد كانت فنون العمارة التي أبدع فيها أجدادنا مثار إعجاب العالم بشرقه وغربه، فما من مدينة من مدن العالم إلا وكانت العمارة الإسلامية شاهدًا على براعة وفنون من قاموا بتشييد الحضارة الإسلامية.

لقد وجدت الشعوب التي دخلت الإسلام كالمصريون والهنود والأتراك والإيرانيون والصينيون وجنوب أوروبا وشمال أفريقيا الفرصة مُتاحة للنهوض العمراني والمعماري، فأخرجوا أجمل ما لديهم من فنون وعمارة وإبداع، حتى أسسوا حضارة مُترامية الأطراف.

وامتدت أنوار هذه الحضارة لتبدد ظُلمات التخلف التي ظلت تطاردهم لقرون عديدة، فحررهم الإسلام ونشر النور في أرجاء بلدانهم من خلال ما جاء به من عمق حضاري.

ويعد الوقف هو النبع الذي مول قيام الحضارة الإسلامية وصنع منها أنموذجًا لا تُحاكيه أي حضارة أخرى.

لقد ارتبطت الحضارة الإسلامية بما قدمه الإسلام من نُظم وشرائع مصدرها إلهي، وعلى رأسها نظام الوقف، فقام على أساسها بنيان حضاري انعكست آثاره الاجتماعية والاقتصادية على جميع أبناء الدولة الإسلامية.

وقدم الوقف صورًا حضارية شملت شتى المجالات، كالرعاية الاجتماعية والتربوية والصحية والعسكرية والدينية، فأتاحت للمسلمين الفرصة في "المشاركة الأهلية" في صنع الحضارة؛ لذا لم تكن الدولة هي الفاعل الوحيد في صناعة تلك الحضارة، بل شاركها المجتمع المدني بكافة جوانبه، وهو ما أبقى الحضارة الإسلامية حية فترة طويلة من الزمن، وهذه بعض الصور للحضارة الإسلامية:

في مجال التعليم:

لقد شهدت الحضارة الإسلامية نهضة علمية في مجال التعليم سبقت بلدان العالم القديم، خاصة أوروبا التي كانت تعيش في ظُلمات الجهل، فظهرت الجامعات الإسلامية قبل أوروبا بأكثر قرنين، فكانت أول جامعة بيت الحكمة في بغداد سنة 830م، ثم تلاها جامعة القرويين سنة 859 م في فاس، ثم جامعة الأزهر سنة 970م في القاهرة. وكانت أول جامعة في أوروبا انشأت في سالرنو بصقلية سنة 1090 م على عهد ملك صقلية روجر الثاني. وقد أخذ فكرتها عن العرب هناك . ثم تلاها جامعة بادوا بإيطاليا سنة 1222 م[14].

وكانت الاعتمادات المالية للجامعات من ايرادات الأوقاف. فكان يُصرف للطالب المستجد زيًا جديدًا وجراية لطعامه. وأغلبهم كان يتلقى منحة مالية بشكل راتب، وهو ما يُسمى في عصرنا بالمنحة الدراسية Scholarship . وكانت هناك المدن الجامعية المجانية لساكني المدن البعيدة، وكان يطلق عليها الأروقة. والطلبة كان يطلق عليهم المجاورون لسكناهم بجوارها.

مجال الخدمات العامة:

اعتنت الدولة الإسلامية بإنشاء المرافق الخدمية والعامة، فكانت تنشيء المساجد الوقفية ويُلحق بها المكتبات العامة المزودة بأحدث الإصدارات في عصرها ودواوين الحكومة والحمامات العامة ومطاعم الفقراء وخانات المسافرين علي الطرق العامة ولاسيما طُرق القوافل التجارية العالمية، وطُرق الحج التراثية، وإنشاء المدن والخانقاهات والتكايا المجانية واليتامي، والأرامل والفقراء وأبناء السبيل.

مجال الصحة:

كان إنشاء البيمارستنات الوقفية (المستشفيات الإسلامية) سمة مُتبعة في كل مكان في الدولة الإسلامية يقدم فيها العلاج والدواء والغذاء ومُساعدة أسر المرضي الموعزين مجانًا. وقد بني أول مستشفي في الإسلام الوليد بن عبد الملك سنة706 م (88 هـ) في دمشق. وكان المسلمون يتابعون إنشاء المستشفيات الإسلامية الخيرية باهتمام بالغ.

إن طبيعة الوقف المتجددة، –وهي ظاهرة واضحة في التاريخ الإسلامي– جعلت في المؤسسات التي أقامها الوقف صفة الاستمرار والبقاء طويلاً، دون أن تتوقف عن أداء رسالتها عقب وفاة مؤسسيها، بعكس الكثير من بلدان العالم التي "توقفت المؤسسات الخيرية عن أداء رسالتها بعد فترة من الزمن بسبب وفاة مؤسسيها، ونُضُوب مواردها، وعدم توفر الإمكانات المادية التي تُمكنها من الاستمرار في أداء الرسالة، مما يضطرها إلى طلب المساعدة الخيرية بين الحين والآخر، حتى تتوقف تماما عن العلم، أما في ظل الحضارة العربية الإسلامية، فإنه قلَّ أن تصادفنا هذه الظاهرة"[15].

لقد أسهم الوقف في نشأة حضارة إنسانية متكاملة، حيث كان له الدور الفعال في الاستفادة من طاقات الإنسان والزمن من خلال المؤسسات المختلفة

الفصل الثالث: حكم الوقف على المساجد وآثره في عمارة عمارتها وصور من ذلك

المبحث الأول: المساجد والوقف عليها

أولا: المسجد لغة:

المسجد في اللغة: مفعل بالكسر اسم لمكان السجود، وبالفتح اسم للمصدر، فهو الموضع الذي يسجد فيه، ثم اتسع المعنى إلى البيت المتخذ لاجتماع المسلمين لأداء الصلاة فيه، قال الزركشي رحمه الله: (ولما كان السجود أشرف أفعال الصلاة لقرب العبد من ربه اشتق اسم المكان منه فقيل مسجد، ولم يقولوا مركع، ثم إن العرف خصص المسجد بالمكان المهيأ للصلوات الخمس حتى يخرج المصلّى المجتمع فيه للأعياد ونحوها فلا يعطى حكمه[16].

ثانيا: المسجد شرعًا:

كل موضع من الأرض لقوله صلى الله عليه وسلم: (جُعلت لي الأرض مسجدًا)، وهذا من خصائص الأمة، قاله القاضي عياض، لأن من كان قبلنا، كانوا لا يصلون إلا في موضع يتيقنوا طهارته، ونحن خصصنا بجواز الصلاة في جميع الأرض، إلا ما تيقنا نجاسته.

ثالثًا: أول مسجد:

المسجد الحرام هو أول مسجد وضع على الأرض، وهو الواقع بمكة المكرمة، كما قال سبحانه وتعالى: (إن أول بيت وضع للناس للذي ببكة مباركا)، وفي الصحيحين عن أبي ذر –رضي الله عنه– قال: سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أول مسجد وضع على الأرض، فقال: المسجد الحرام، قلت: ثم أي؟، قال: المسجد الحرام، قلت: ثم أي؟، قال: المسجد الأقصى، قلت: وكم بينهما؟ قال: أربعون عاما، ثم الأرض لك مسجد فحيثما أدركتك الصلاة فصل، وقال البخاري في بعض طرقه: أينما أدركتك الصلاة فصل فيه، فإن الفضل فيه.

رابعًا: حُكم الوقف على المساجد:

أجمع الفقهاء على جواز وقف المسجد والوقف عليه ممن كان من أهل التبرع، لأنه قُربة وعلى جهة بر، إلا أنهم وضعوا قواعد لزوال ملك واقفه عنه ولزومه[17].

وفي هذا يقول الحنفية: إن من بنى مسجدًا لم يزل ملكه عنه حتى يفرزه عن ملكه بطريقه، ويأذن للناس بالصلاة فيه، فإذا صلى فيه واحد زال عن ملكه عند أبي حنيفة ومحمد في إحدى روايتين عنهما، وفي الأخرى: لا يزول إلا بصلاة جماعة، وعند أبي يوسف يزول ملكه عنه بمجرد قوله: جعلته مسجدًا، لأن التسليم عنده ليس بشرط، كما يصح الوقف عليه[18]، والمسجد جُعل لله تعالى على الخلوص مُحررًا عن أن يملك العباد فيه شيئا غير العبادة فيه وما كان كذلك خرج عن ملك الخلق أجمعين [19] .

ومتى زال ملكه عنه ولزم فليس له أن يرجع فيه، ولا يبيعه، ولا يورث عنه، لأنه تجرد عن حق العباد وصار خالصا لله تعالى، وذلك لأن الأشياء كلها لله وإذا أسقط العبد ما ثبت له من الحق رجع إلى أصله فانقطع تصرفه عنه كما في الإعتاق [20] . ويقول المالكية : إن من بنى مسجدا، وخلى بينه وبين الناس للصلاة فيه صح وقفه ولزم، فإذا لم يخل الواقف بينه وبين الناس بطل وقفه، كما يصح الوقف عليه [21].

ويقول الشافعية : إن من بنى مسجدًا وصلى فيه، أو أذن للناس بالصلاة، وقال : وقفته مسجدا للصلاة فيه صح وقفه، وإن لم يقل ذلك لم يصح أن يكون مسجدًا، لأنه إزالة ملك على وجه القربة فلم يصح من غير قول مع القدرة كالعتق .

فإذا صح لزم وانقطع تصرف الواقف فيه، لما روى ابن عمر –رضي الله عنهما– أن النبي –صلى الله عليه وسلم– قال لعمر رضي الله عنه: إن شئت حبست أصلها وتصدقت بها قال فتصدق بها عمر، إنه لا يباع ولا يوهب ولا يورث [22]، ويزول ملكه عن العين في الصحيح عندهم[23] .

ويقول الحنابلة : إن من بنى مسجدًا وأذن للناس بالصلاة فيه إذنًا عامًا كان لازمًا ومؤبدًا لا يباع ولا يوهب ولا يورث [24] .

المبحث الثاني: أثر الوقف في عمارة المساجد وصور من عمارتها

لعبت الأوقاف دورًا بارزًا في إنشاء المساجد وتعميرها، وعمارتها في مختلف البلدان الإسلامية، وظلت تلك الأوقاف إلى وقتنا الحالي هي السند الحقيقي لحمايتها من التقلبات المالية والاقتصادية، والحفاظ عليها وصيانتها.

لقد كان للمسجد دور محوري قامت على أساسه الحضارة الإسلامية، فأول وقف في الإسلام كان بعد هجرة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهو عبارة عن الأرض الخاصة ببناء مسجده، ثم وقف مخيريق في السنة الثالثة للهجرة؛ وكان عبارة عن سبعة حوائط –أي بساتين –.

و"تُعتبر مؤسسة الوقف من أهم الموارد المالية، فقد رُصدت للمساجد ليستمر فيها كل ما يخص الشؤون الإسلامية ودور تحفيظ القرآن الكريم، وأن يؤدي الوعاظ والخطباء وليؤدوا دورهم في تنمية معاني الخير والحق وبيان روعة الإسلام ومعالجته لمشكلات الحياة وقضايا الناس .. فهذه المؤسسة كانت –وما تزال– أهم مورد لشؤون الدين والتعليم الإسلامي على الإطلاق، وأكثرها دخلًا وإدرارًا، وإليها يرجع الفضل في بقائه واستمراره حقبًا وقروناً وفي انتظام الحياة العلمية والدراسية في جامعات الإسلام وكلياته ... ومما يُروى أن الخليفة الحاكم بأمر الله أمر بجرد المساجد التي لا غلة لها .. فظهر أن هناك (830) مسجدًا تحتاج إلى النفقة .. فأوقف عليها جميعًا الحبوس (الأوقاف) لكي يُصرف من ريعها على فقهائها وقرائها ومؤذنيها والمستخدمين حتى شملت ثمن الأكفان.." [25].

ومما سبق يتضح دور الأوقاف في إقامة روح المسجد في الإسلام والمتمثلة في الصلاة والدعوة والإرشاد من خلال القائمين على المسجد وعيشهم الكريم من الأوقاف.

أولا: دور الوقف في بناء المساجد والجوامع:

لقد قامت الأوقاف بدور كبير في إحياء دور المسجد في الحضارة الإسلامية، حيث أدت خدمة مشهودة في مجال تشييد المساجد والجوامع والتكايا وتعيين رجال مختصين لإقامة الشعائر الدينية .. وكانت مُهمة الأوقاف محصورة في أمرين هامين هما:

1– صيانة أملاك الوقف والعمل على تنمية مواردها.

2– العناية ببيوت الله ونشر الدين والثقافة الإسلامية وتحفيظ القرآن الكريم[26].

ثانيًا: أشكال من الفن الإسلامي في عمارة المساجد[27]:

أ. المكونات الرئيسية في عمارة المساجد:

هناك خمسة مكونات معمارية أساسية لا يكاد يخلو منها أي مسجد: وهي: بيت الصلاة، والصحن، والقبلة، والمحراب، والمنبر.

بيت الصلاة: وهوالجزء المسقوف من المسجد من ناحية القبلة، وقد لا يزيد عمقه (ويسمى جوفه) عن صفين من الأعمدة، وقد يمتد فيشمل أكثر من نصف مساحته.

الصحن: وهو الجزء غير المسقوف، ويعد امتدادًا لبيت الصلاة، ويستعمل في مناسبات الصلوات الجامعة، ولا يُعتبر فيما عدا ذلك جزء من المصلى نفسه، لذلك كان يترخصون في استعمال صحون المساجد فكانوا يتخذونها ممرات من طريق إلى لآخر، ثم أُعتبرت أجزاء أساسية من المساجد.

القبلة: وهي صدر المسجد، وهي جداره المتجه نحو مكة، فإذا صلى الناس تجاهها كانت وجوههم ناظرة إلى بيت الله في ذلك البلد الحرام.

المحراب: وهو الموضع الذي يقف تجاهه الإمام عندما يؤم الصلاة. كما إنه علامة دلالية لتعيين اتجاه القبلة(الكعبة)، وهذه العلامة على هيئة مسطح أو غائر(مجوف) أو بارز.

والمسلمون استعملوا المحاريب المجوفة ذات المسقط المتعامد الأضلاع، أو المسقط النصف دائري. وقد أختيرت الهيئة المجوفة للمحراب لغرضين رئيسيين هما، تعيين اتجاه القبلة، وتوظيف التجويف لتضخيم صوت الإمام في الصلاة ليبلغ المصلين خلفه في

الصفوف. وكانت تجاويف المحاريب تُبطن وتكتسي بمواد شديدة التنوع كالجص والرخام والشرائط المزخرفة بالفسيفساء أو المرمر المزخرف.

ونرى المحاريب التي شيدها المماليك في مصر والشام من أبدع المحاريب الرخامية، حيث تنتهي تجويفة المحراب بطاقية على شكل نصف قبة مكسوة بأشرطة رخامية متعددة الألوان.

أبرع الفنانون المسلمون في استخدام مُختلف أنواع البلاطات الخزفية لتغشية المحاريب أما الخزافون في الشرق، فقد استخداموا بلاطات الخزف ذات البريق المعدني والخزف الملون باللون الأزرق الفيروزي.

وقد حفلت المحاريب بالكتابات النسخية التي تضم آيات من القرآن الكريم، بجانب الزخارف النباتية المميزة بالتوريق والأرابيسك. كما استخدمت فيها المقرنصات الخزفية لتزيين طواقي المحاريب. وجرت العادة وضع المحراب في منتصف جدار القبلة بالضبط ليكون محورًا لتوزيع فتحات النوافذ على جانبيه بالتوازن[28].

المنبر: يُعرفه ابن منظور بأنه: مرقاة الخاطب، وسمي منبرًا لارتفاعه وعلوه.

بجانب ما سبق ذكره، هناك مكونات وعناصر أُخرى مثل:

– **المئذنة:** وهي (المنارة) الملحقة ببنايات المساجد لها سماتها المعمارية، وتتكون من كتلة معمارية مرتفعة كالبرج وقد تكون مربعة أو مستديرة أو بها جزء مربع وأعلاها مستدير. وبداخلها سلم حلزوني (دوار) يؤدي إلي شرفة تحيط بالمئذنة ليؤذن من عليها المؤذن، وليصل صوته لأبعد مدى ممكن. والمآذن المملوكية تتكون من جزء مربع ثم جزء مثمن ثم جزء مستدير بينهم الدروات ويعلوها جوسق ينتهى بخوذة يثبت بها صوارى تُعلق بها ثرايات أو فوانيس. ومئذنة مدرسة لغورى بالقاهرة، أقيم في طرفها الغربى منار مربع يشتمل على ثلاثة أدوار يعلو الدور الثالث منها أربع خوذ كل خوذة منها في دور مستقل، ومحمولة على أربعة دعائم وبكل خوذة ثلاث صوارى لتعليق القناديل أو الثريات[29].

– **الزخرفة:** وتعتبر لغة الفن الإسلامي، حيث تقوم على زخرفة المساجد والقصور والقباب بأشكال هندسية أو نباتية جميلة تبعث في النفس الراحة والهدوء والانشراح. وسمي هذا الفن الزخرفي الإسلامي في أوروبا باسم أرابسك بالفرنسية ARABESQUE وبالإسبانية أتوريك ATAURIQUE أي (التوريق)، وقد إشتهر الفنان المسلم فيه بالفن السريالي التجريدي SURREALISM ABSTRACT من حيث الوحدة الزخرفية النباتية كالورقة أو الزهرة[30].

– **العقود والقباب:** تُعتبر القبة –إلى جانب المئذنة– من أظهر عناصر العمارة المسجدية الإسلامية، ويكاد يكون من العسير أن نتصور مسجدًا ذا مئذنة بدون قبة أو مسجدًا ذا قبة بدون مئذنة قريبة منها لأن المعمارين المسلمين عرفوا كيف يجعلون من هذين العنصرين المعمارين المختلفين في الهيئة وحدة جمالية تضفي على المسجد توازنًا يرتاح إليه النظر.

وعمل القبة في ذاته مُعضلة فنية، توصل إلى حلها المعماريون المسلمون بوسائل شتى كل منها يدل على مهارة وتفكير. والمعضلة تتلخص في أن القبة تقوم –في العادة– على شكل مربع، فلابد من الانتقال من المربع إلى شكل دائري ثم إقامة القبة على جدران الدائرة.

وللعقود أشكال مُختلفة، منها نصف الدائري، وحذوة الحصان، والمنفرج، والمدبب، ويلاحظ أن العقد المدبب ينتج عن تقاطع دائرتين، ولهذا فإن لانحنائه مركزين.

وأهم أشكال العقود المعروفة في العمارة الإسلامية: العقد نصف البيضة، وهو الذي يشبه انحناؤه شكل نصف البيضة الأسفل، وهو نادر الوجود في العمارة الإسلامية، وأصله إيراني؛ والعقد المستقيم، وهو الذي يقوم انحناه على كتف البناء مباشرة دون الحاجة إلى أرجل طويلة، والعقد نصف الدائري[31].

– **الأعمدة والشرفات أو عرائس السماء.**

هناك عناصر معمارية أخرى مثل: المقصورة، والشمسيات والقمريات، والشماسات، والزخارف والحليات..

الفصل الرابع: الطُّرز المعمارية للمساجد

لقد كان لاختلاف بُلدان وبيئة وعصُور وأذواق المعمارين المسلمين، أثر كبير في العمارة الإسلامية، حيث تنوعت الطرز والمدارس التي أخرجت المساجد الإسلامية كتحف معمارية قل نظيرتها، بل إنهم اجتهدوا في الابداع وابتكار الحلول الهندسية والمعمارية للمساجد.

وقد تنوعت الطُّرز المعمارية للمساجد، وذلك على النحو التالي:

الطراز العباسي : ومن نماذجه مسجد بغداد، ومسجد واسط، ومسجد سامرا.. وغير ذلك من المساجد.

الطراز الفاطمي: فقد تميز برصانة البناء، ومتانة تأسيسه، والمحافظة على الوحدة الفنية في البناء مع الحرص على توازن الهيئة العامة للمبنى، وباستثناء الأزهر تتميز كل المساجد المصرية بهذا التوازن العام في المبنى، فلو نظرنا إلى مئذنة مصرية نلاحظ فيها هذا التوازن من حيث قطر الدائرة والارتفاع وعدد الشرفات، والنموذج الأشهر هو المسجد الأزهر، وجامع الحاكم، والجامع الأحمر ومسجد طلائع بن رزيك.

الطراز السلجوقي: لا يتخذ هيئة واحدة متميزة بخصائص واضحة، وإنما الرابطة فيه تتعلق بخصائصه التفصيلية من ناحية المواد المستعملة والطرق الفنية، وقد أحسن المعماريون استخدام الأحجار ما بين حجرية ورملية وجرانيتية ورخام ومرمر؛ فخامات الصخور التركية السلجوقية بديعة في صلابتها وتكوينها، ومن هنا جاءت مساجدهم متينة ومحكمة ومزخرفة بأحكام ودقة، واستطاعوا بمهارة أن يصنعوا الواجهات والعقود والأزر والمثلثات الكروية والقباب والمآذن، كما تفننوا في ابتكار أشكال زخرفية بديعة، وبرعوا في استخدام الجص والفخار والخزف، وابتدعوا الفسيفساء للزخرفة، كما استخدموا التصوير على الخشب والمعادن والزجاج. ومن أمثلتها: مسجد السلطان في بغداد، ومسجد أصفهان الجامع، ومسجد نور الدين في الموصل.

الطراز الإيراني المغولي: بعد غارات المغول على العالم الإسلامي ابتداء من النصف الثاني وحتى القرن الثالث عشر الميلادي، تأثرت بها العمارة الإسلامية الدينية وغير الدينية في إيران وبلاد ما وراء النهر وشما الهند، فأدخل تطور جوهري على المساجد، فأصبحت تتجه إلى الفخامة والضخامة من ناحية نواحي المنشآت: الجدران العالية المبنية بالحجارة المنحوتة المصقولة – البوابات الضخمة الملبسة بالرخام والمرمر والقيشاني الملون– القباب المرتفعة المزينة من الخارج والداخل بالرسوم والقيشاني– تعدد بيوت الصلاة في المسجد الواحد عن طريق إيوانات جانبية وفرعية تتجه كلها نحو القبلة – اختفاء العمد شيئا فيشيئا وحلول الدعامات الحجرية محلها لتستطيع حمل العقود الضخمة التي يرتكز عليها السقف، وتقوم عليها القباب، وصغر أحجام الصحون المكشوفة واختفاؤها في أحيان كثيرة، وظهور المآذن عظيمة الارتفاع[33].

نماذجها: مسجد جوهر شاد في روضة الإمام علي الرضا في مدينة مشهد (بُني سنة 1418هـ). مسجد قابلان في بخاري (في الوقت نفسه تقريبًا)، مسجد تيمور لنك الجامع في سمرقند... وغيرهم[32].

الطراز المملوكي في مصر والشام: في هذا الطراز تحولت المساجد إلى مجموعات معمارية تضم كل منها مسجدًا وروضة (مدفنا لصاحب المسجد)، ومدرسة، ويُضاف إليها –أحيانًا– سبيل يستقي منه، ومارستان –أي مستشفى– وتتسع مساحات المساجد وتعدد أجزاؤها وملحقاتها وأبهاؤها، وإيواناتها. أول مظهر للطراز الجديد مسجد الظاهر بيبرس (1277–1260)، وأشهر نماذجه ما بين كبيرة وصغيرة: مسجد الناصر في قلعه الجبل (1318)، وجامع السلطان المؤيد (1439–1416)، جامع وروضة ومارستان السلطان قلاوون... وغيرها من المساجد.

الطراز الهندي: قد تميز بعدة خصائص؛ إذ كانت المساجد الأولى في الهند أشبه بحصون ؛ فالهدف من إقامة المسجد الأول هناك لم يكن فقط مُجرد إيجاد مكان للعبادة بل أيضًا حماية الجماعة الإسلامية الناشئة. وقد زالت جميع هذه المساجد الحصينة، فيما تطورت المساجد حتى بدأت تأخذ الهيئة العادية للمسجد، وإن لم تتخل تمامًا عن الطابع العسكري.

والمعمار الإسلامي الهندي فريد في بابه؛ إذ استطاع المعماريون الهنود أن يجمعوا بدقة وإتقان شديدين بين تقاليدهم في الهندسة والمعمار ونظام المساجد الإسلامية. ومن أبرز المعماريات الإسلامية في الهند "تاج محل".

الطراز التركي العثماني: وهو أنموذج متطور للطراز التركي السلجوقي، واستمرار للنمط السابق. وأول مسجد عثماني واضح المعالم هو "أولو جامع" والمآذن العثمانية تتميز بنحولها وشرفتها الواحدة، وقد دخلت العمارة العثمانية في دور تطور عظيم على يد سنان باشا أحد أهم المعماريين المسلمين في القرن السادس عشر الميلادي.

الطراز المغربي: ومن أهم ملامحه تركيزه على بيت الصلاة، والاهتمام بتعميق جوفه حتى يصبح مربعًا أو قريبًا من المربع، وتمتاز مساجد الشكل المغربي بمنابرها البديعة كما هو ماثل في مسجد عقبه بن نافع في القيروان .

الطراز الأندلسي: نشأ هذا الطراز مع إنشاء الجزء الأول من مسجد قرطبة الجامع على يد عبد الرحمن الداخل ومن بعده ابنه هشام، فهو إذن يأتي –زمنيًا– تالياً للشكل المغربي، وهي قائم على طريقة المزاوجة في صنجات العقد بين الحجر المنحوت وقوالب الأجر. وقد تعمد صانعوه أن يكون السقف خشبيًا خفيفًا لكي لا يزيد الثقل على الأعمدة وزينت أبوابه بشماسات حقيقية أو صماء، وهذا المسجد يمثل طراز الخلافة إحدى الطرز الأندلسية .

هناك من الطُّرز الأندلسية الطراز المدن نسبة للمسلمين الذي بقوا في نواحي الأندلس التي سلبها النصارى. وقد تطور في أخر صورة إلى طراز زخرفي مثقل بالزخارف والشماسات والقمريات. وهذا التطور قد عُدَّ آخر فصل في تاريخ العمارة الإسلامية في الأندلس[34].

الخاتمة

تعد الأوقاف في الإسلام مُفتاحاً للخير، يولج الإنسان من خلاله إلى طاعه الله –عز وجل–، وطرق أبواب البر والإحسان، وبالرغم من كونها كذلك، فقد كانت نظامًا ماليًا مّول الحضارة الإسلامية في مجدها، وساعدها على الاستمرار والوقوف شامحة لعدة قرورن من الزمان، استطاعت من خلالها تشييد المدن الحضارية، في بغداد، ودمشق، والقاهرة، وبخارى، والهند والسند، والمغرب والأندلس، وغيرها من المدن التي لا تعد ولا تحصى، وظلت شاهدًا على عظمة هذه الحضارة.

ولقد استعرضنا في هذا البحث المبارك دور الوقف في بناء تلك الحضارة، وخاصة عمارة المساجد باعتبارها من أوقاف المسلمين، فقد أبدع الصناع والمهرة في الاعتناء والاهتمام ببنائها وزخرفتها وعناصرها ومكوناتها، فصارت معالم في كل مدينة من مدن العالم الإسلامي، فعرقت القاهرة بالأزهر الشريف، والموصل بمسجد نور الدين، وبغداد بمسجد بغداد، وسامراء بمسجد سامراء، ودمشق بالمسجد الأموي، ومشهد بمسدد الأمام علي الرضا، وبخارى بمسجد قابلان.

وهكذا... يجب أن نعيد للأوقاف الإسلامية دورها التاريخي في صياغة الحضارة الإسلامية، والمساهمة في الفعالة في عودتها إلى سابق عهدها، فقد كانت الأوقاف الممول الرئيسي للحضارة الإسلامية بجانب كونها تقوم بدور كبير في خدمة المسلمين والقضاء على البطالة، وسد حاجة الفقراء، والنهو ض بالاقتصاد.

المراجع:

****

[1] معجم مقاييس اللغة 135/6.

[2] ينظر: مادة (وقف)، القاموس المحيط للفيروز آبادي، 205/3.

[3] ينظر: القاموس المحيط 205/3.

[4] القاموس المحيط 205/2.

[5] لسان العرب، والمصباح المنير، مادة (وقف).

[6] الدر المختار وحاشية ابن عابد ين عليه 357/3–358، والهداية 13/3–14.

[7] الدر المختار وحاشية ابن عابدين عليه 357/3–358، والهداية 13/3–14.

[8] منح الجليل 34/4، وجواهر الإكليل 205/2.

[9] مغني المحتاج 376/2.

[10] شرح منتهى الإرادات 489/2، والإنصاف 3/7.

[11] الطاهر زياني، بحث منشور، https://goo.gl/gmksGm

[12] مجلة البحوث الإسلامية، العدد السادس والثلاثون، الإصدار : من ربيع الأول إلى جمادى الثانية لسنة 1413هـ، الجزء رقم : 36، الصفحة رقم: 209، البحوث، أهمية الوقف وحكمة مشروعيته، الفصل الثالث في أهداف الوقف وحكمة مشروعيته، الأهداف الخاصة للوقف.

[13] العمراني، د. عبدالله بن محمد، دور الوقف في دعم البحث العلمي (دراسة فقهية)، بحث منشور، ص1.

[14]: وكي الكتب، عبقرية الحضارة الإسلامية https://goo.gl/gx96Av

[15] عمارة، محمد، دور الوقف في النمو الاجتماعي وتلبية حاجات الأمة، ندوة نحو دور تنموي للوقف، الكويت، 1993م، ص170

[16]: الزركشي، محمد بن عبد الله، 745-794هـ، تحقيق فضيلة الشيخ أبو الوفا مصطفى المراغي، إعلام الساجد بأحكام المساجد،الطبعة الرابعة، القاهرة 1996م، 463/29.

[17] – الموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، دولة الكويت، ص220.

[18] – فتح القدير، 62/5، والاختيار شرح المختار، 108/2ط، مصطفى الباني الحلبي، 1936م.

[19] – فتح القدير، 42/5، 64.

[20] – فتح القدير، 64/5.

[21] الشرح الكبير وحاشية الدسوقي عليه، 81/4، وجوهر الأكليل 206/2.

[22] حديث : " إن شئت حبست أصلها . . . " . أخرجه البخاري (فتح الباري 5 / 354)، ومسلم (3 / 1255)، واللفظ للبخاري .

[23] المهذب 1 / 448 – 449، وشرح المحلي على المنهاج 3 / 100 – 101 .

[24] منار السبيل في شرح الدليل، 6/2، المكتب الإسلامي.

[25] بو ركبة، د. السعيد. دور الوقف في الحياة الثقافية بالمغرب في عهد الدولة العلوية. جزءان، مطبوعات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية. المملكة المغربية، 1417هـ.

[26]الكبيسي، د. محمد. مشروعية الوقف الأهلي ومدى المصلحة فيه. ضمن بحوث ((ندوة مؤسسة الأوقاف)) المملكة المغربية 1403هـ

[27] مؤنس، حسين، المساجد، سلسلة عالم المعرفة، العدد37، ص61.

[28] حسن، زليخا أمين، موسوعة ينابيع المعرفة: حضارات وأعلام، دار دجلة، ص103.

[29]: المصدر السابق

[30]: وكي الكتب، عبقرية الحضارة الإسلامية https://goo.gl/gx96Av

[31] مؤنس، حسين، المساجد، سلسلة عالم المعرفة، العدد37، ص120.

[32] المرجع السابق، ص85.

[33] المرجع السابق، ص85.

[34] ويب، إسلام، التطور المعماري للمساجد https://goo.gl/fyHAHl، دراسة عن عمارة المساجد.. الأنموذج السعودي لبناء بيوت الله، وزارة الإعلام – المملكة العربية السعودية